مجلة المنهل • المجلد: 07، العدد: 02 (2021 م) • ص ص 87 - 106
ISSN : 2437 - 1068 • EISSN 8392-2710

الموقف الاستشراقي من إعجاز القرآن الكريم ـ عرض ونقد ـ

Orientalist position on the miracles of the Holy Qur'an - Presentation and criticism-

جمعي بوقفة (*)
جامعة باتنة 1 (الجزائر)،
djemb05@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/05/12	2021/09/05	2021/11/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:
يهدف هذا المقال، الموسوم بـ "الموقف الاستشراقي من إعجاز القرآن الكريم . عرض ونقد"، إلى بيان الموقف الاستشراقي وآلياته من إعجاز القرآن الكريم، من خلال تتبع أقوال بعض المستشرقين التي تم عرضها وتحليل مضمونها ونقده، بغرض الكشف عن مدى علميتها أو تحيزها، مقتصرا على ثلاثة أوجه من الإعجاز، هي الإعجاز البياني واللغوي، والإعجاز التاريخي الغيبي والإعجاز العلمي.

وقد أفضى البحث إلى أن الموقف الاستشراقي العام من إعجاز القرآن، إذا استثنينا موقف بعض المنصفين منهم، هو النفي والإنكار، انسجاما مع موقفهم المنكِر لنبوة محمد ﷺ، فكان نتيجة ذلك أن نسبوا القرآن له، وراحوا يبحثون عن مصادر تأليفه، ويؤولون معانيه وحقائقه بما يتناسب وهذه الرؤية التي يؤمنون ويسلمون بها. ومن تلك الحقائق إعجازه؛ فاستعملوا آلية التشكيك والتلميح في إعجازه اللغوي والبياني؛ لأن القول الفصل فيه يعود إلى أصحاب اللسان الذي نزل به. ووظفوا تقنيتي التوفيد والتأويل في طمس إعجازه التاريخي، كما اعتمدوا آليتي التجاهل والتهوين من حقائقه العلمية وإشاراته السننية في التغطية على إعجازه العلمي.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز؛ الاستشراق؛ القرآن؛ الموقف.

Abstract :
This article, entitled: "Orientalist position on the miracles of the Holy Qur'an -Presentation and criticism-" aims to clarify the Orientalist position and mechanisms on the miracle of the Qur'an, by tracking the sayings of some orientalists that have been presented, and analyzing and criticizing their content, hoping to reveal the extent of their knowledge or bias, confining them to three aspects of the miracles, which are the linguistic miracles, the

---

(*) المؤلف المراسل.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

unseen historical miracle and the scientific miracle.

The research has revealed that the general Orientalist position on the Qur'an's miracle, if we exclude some fair people from them, Is its denial influenced by their position denying the prophet hood of Muhammad –peace be upon him- and his message. Thus, they rated The Holy Qur'an to Muhammad –peace be upon him-, and looked for its sources, and interpreting its meanings and facts, including the quranic miracle, according to their vision. So they used the mechanism of skepticism and insinuation in his linguistic miracle. They employed the techniques of dispatching and interpretation to obscure his historical miracles, they also adopted the mechanisms of ignoring and underestimating his scientific facts and his devine references in covering up his scientific miracles.

Keywords: Miracles; Orientalism; the Qur'an; the position.

1 ـ مقدمة

القرآن الكريم بما هو "كلام الله المنزّل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل، عليه السلام، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، والمتحدى بأقصر سورة منه" (معبد، 1986، صفحة 13)، هو الآية التي أيّد بها الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على صدق نبوّته ورسالته التي كلّف بتبليغها للناس، وهي تختلف في طبيعتها عن الآيات التي تأيّد بها الأنبياء والرسل، عليهم السلام، السابقون له، والتي كانت على شكل خوارق حسية يقوم بها الأنبياء تفوق قدرات البشر فيما تعودوا القيام به، ويعجزون عن الإتيان بمثلها، كتحويل العصا إلى ثعبان، وشفاء المرضى بدون دواء، وإحياء الموتى،..إلخ، فيسلّمون لمن يقوم بها بفعل التأثير الآني للآية التي تسمى المعجزة، في عقولهم ووجداناتهم، ولكن تأثيرها القوي يبقى خاصا بمن عاصرها وشاهدها، ثم مع مرور الزمن يخبو وقعها في الأجيال المتعاقبة، ولا غرابة في هذا؛ لأن هذا النوع من الآيات كان يتناسب مع طبيعة الرسالة التي بعث بها النبي، من حيث خصوصيتها القومية والزمنية. أما آية صدق النبي محمد ﷺ ومعجزته فهي مختلفة بحكم اختلاف طبيعة رسالته، من حيث إنها خاتمة الرسالات السماوية الموجهة إلى الناس كافة، ومن هنا كان الطابع والشكل الإعجازي لهذه الآية التي تأيّد بها الرسول ﷺ يتناسب مع خاتمية رسالته وعالميتها، وهو فعلا ما تجسّد في القرآن الكريم بأبعاده الإعجازية المختلفة، المتكشفة والمستترة التي تظهر للناس عبر العصور، إلى قيام الساعة؛ فهو معجز في نظمه وبلاغته وبيانه، معجز في عقائده وتشريعاته، معجز في أخباره ونبوءاته، معجز في هديه وقيّمه، ومعجز في علومه ومعارفه، ...، تتعدد أبعاد إعجازه ليكون حجة الله على الناس جميعا، عربيّهم وعجميّهم، لا عذر لمن بلغته دعوته.

هكذا ينظر المسلمون إلى القرآن الكريمة لما توفر له من مقومات الإعجاز، كالتحدي بالإتيان بمثل أصغر سورة منه والعجز عن ذلك رغم وجود ما يدعو إلى الاستجابة لهذا التحدي، أو الإخبار بالغيب ماضيا ومستقبلا بما لا يعلمه الرسول ﷺ ولا قومه ولا سائر الناس، أو الإشارة إلى بعض القوانين التي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تتحكم في فطرة الإنسان واجتماعه ونواميس الكون من حوله...، وغيرها من المقومات المذكورة في كتب علوم القرآن قديما ويؤكدها أو يزيد عليها العلماء حديثا.

ترى كيف كان الموقف الاستشراقي من هذا الإعجاز؟ وكيف واجه الاستشراق حقائقه؟ وما هي الآليات التي استعملها لتوهين مقوماته؟ تلك هي الإشكالية التي يروم هذا المقال، الموسوم بـ "**الموقف الاستشراقي من إعجاز القرآن الكريم – عرض ونقد**"، الإجابة عنها من خلال تتبع أقوال بعض المستشرقين، الواردة في مؤلفاتهم المترجمة أو المراجع العربية المحال عليها، والتي سيتم عرضها وتحليل مضمونها ونقدها، أملا في الكشف عن مدى علميتها أو تحيزها، كما سيحكم القارئ الكريم، ورغبة في المساهمة في تزويد الساحة الفكرية العربية بدراسة تخدم كتاب الله تعالى، خاصة أن الدراسات التي تناولت هذا الموضوع بصفة مستقلة وبالشكل الذي تناوله به الباحث، وحسب علمه، شبه منعدمة، إذا استثنينا دراسة الدكتور عبد الرزاق أحمد رجب، من جامعة اليرموك بالأردن، حول المستشرق المجري جولدتسيهر وموقفه من الإعجاز في القرآن الكريم، المشار إليها في قائمة المصادر والمراجع، والتي تلتقي مع دراستي في بعض النقاط والأقوال المستشهد بها . كما هو مبيّن في الهوامش التي أحلت عليها. خاصة فيما يتعلق بالإعجاز اللغوي والبياني.

وقبل عرض موقف المستشرقين من إعجاز القرآن نشير إلى أن موقفهم يتأثر بأمرين؛ الأول موقفهم من مصدر القرآن، والثاني كيفية تعرفهم على القرآن؛ هل تمّ من خلال لغته العربية مباشرة دون واسطة، أو من خلال واسطة الترجمة؟ لأن الترجمة الرديئة أو المحرّفة، بما تحرّفه من معاني أو تزييفٍ للحقائق أو تُلقيه من شكوكٍ، قد تصدُّ الباحث المتحرّي للصدق الساعي إلى الحق عن الموقف الصحيح والرأي السديد. وأما موقف عموم المستشرقين من مصدر القرآن، فهم يرون أنه من تأليف محمد ﷺ، ولا يؤمنون بمصدره الإلهي، وهو أمر مسلّم عندهم، غير قابل للنقاش، تنطلق منه أبحاثهم وسائر مواقفهم، كما يصرّ عليه المستشرق الأنجليزي "جورج سال" (ت 1736م) بقوله: "ومما لا مراء فيه ولا ينبغي أن يختلف فيه اثنان أن محمدا [ﷺ]* هو في الحقيقة مصنّف القرآن، وأول واضعيه، وإن كان لا يَبْعُد أنّ غيره أعانه عليه، كما اتهمته العرب" (سال، 1913، صفحة 131)، وهذا نابع من موقفهم المسبق الرافض لنبوته ﷺ، ومن هنا كان الموقف العام لهؤلاء هو عدم الإقرار بإعجاز القرآن، وهو ما عُبِّر عنه بصراحة في دائرة المعارف البريطانية تحت مادة "قرآن" بالقول: "القول بإعجاز لغة القرآن جمالا وصفاء مما يعجز عن محاكاته الإنس والجن، حتى فصحاء العرب وبلغاؤهم، أمر غير مقبول" (الوزان، دت، صفحة 23). وهذا الموقف هو الغالب عند المستشرقين الكلاسكيين، حيث تكاد لا تجد منهم من اعترف بالمصدرية الإلهية

* الصلاة على النبي ﷺ الموضوعة بين معقوفتين لا توجد في الأصل، وهي من إضافة الباحث.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للقرآن، سواء كانت معرفته بالإسلام ومصادره عن طريق الاطلاع المباشر باللغة العربية أو الترجمة المحرفة لمضامينه؛ لأن معرفتهم به لم يكن الهدف منها البحث عن الحق والحقيقة، بقدر ما كان الدفاع عن المسيحية وحمايتها من الإسلام وجاذبيته، فكان لا بد من التركيز على تشويه وتحريف مصدره الأول، من خلال ترجمات القرآن الأولى.

وهذا الموقف الاستشراقي المشحون بالحقد المسيحي الصليبي منع النظر المنطقي الذي يجعل القرآن حجة على نبوة سيدنا محمد ﷺ وليس العكس كما سلك هؤلاء، الذين حددوا موقفهم الرافض للنبوة سلفا ليصبح القرآن تأليفا محمديا يؤولون نصوصه ويحرفونها بما يتناسب مع هذا الموقف.

ويستثنى من هذا الموقف العام الرافض للإقرار بالطابع الإعجازي للقرآن، بعض الاعترافات من بعض المستشرقين الموضوعيين المنصفين الباحثين عن الحقيقة، حتى أن البعض منهم تأثر بجاذبية الإسلام وبعض جوانب الإعجاز في القرآن فأعلن إسلامه، كما حدث مع المستشرق الفرنسي موريس بوكاي، والمستشرق النمساوي محمد أسد، والمستشرق الألماني مراد هوفمان، وغيرهم ممن سنتطرق إلى بعض مواقفهم المنصفة للقرآن، نتيجة اطلاعهم المباشر على القرآن باللسان الذي أنزل به، بعد تعلمهم اللغة العربية، أو عن طريق الترجمات الموضوعية الجيدة لمعاني القرآن الكريم، المتحررة من البعد الإيديولوجي والحقد الصليبي المسيحي.

ويعتبر ما كتبه المستشرق المجري جولدتسيهر في كتابه "مذاهب التفسير الإسلامي" من أخطر ما قيل عن إعجاز القرآن، لذلك سيركز المقال على أقواله مع تحليلها ومناقشتها، مقتصرا فقط على ثلاثة أبعاد أو أوجه من الإعجاز، هي الإعجاز البياني واللغوي، والإعجاز التاريخي الغيبي والإعجاز العلمي، وهي، في نظر الباحث، الأبعاد الأكثر حجية على الإنسان الغربي عامة، والمستشرقين خاصة، حيث لا يمكنهم نسبة هذه الأوجه لغير ما جاء به محمد ﷺ، كما يفعلون مثلا مع أخبار السابقين التي ينسبونها إلى اليهود والمسيحيين وغيرهم، أو الإعجاز التشريعي الذي ينسبونه إلى الرّومَان..؛ لأن الإعجاز اللغوي والبياني ليسوا أهلا ليحكموا عليه، وإنما الكلمة فيه للعرب، الذين بلغوا ذروة الفصاحة والبلاغة في زمن البعثة، لتكون حجة على بقية البشر، مثلما تعرض النصوص الأدبية على النقاد، والنظريات العلمية على العلماء المختصين، ... ليحكموا على مستواها أو صحتها لتكون حجة على سائر الناس حتى وإن لم يفهموها أو يجاروها. وأما الإعجاز التاريخي، وخاصة ما تعلق بالغيبيات المستقبلية، فالحكم فيه يعود للواقع تصديقا أو تكذيبا، وكذلك بالنسبة للإعجاز العلمي فالفيصل فيه العلمُ ومخابره. ثم أختم ببعض الأقوال الاستشراقية المنصفة الناقدة للموقف الاستشراقي العام المنكر للإعجاز.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد عمد المستشرقون إلى الأسلوب غير المباشر في الطعن في إعجاز القرآن الكريم؛ فبالإضافة إلى إحياء الشبهات والنقاشات المثارة في التراث الإسلامي حول إعجازه، يوجهون أيضا سهام الطعن إلى أسلوبه وترابطه وبلاغته وتعارض مضمونه، وغيرها من الافتراءات، التي توحي إلى القارئ غير المتحصن بالثقافة العلمية الإسلامية بأن القرآن غير معجز لا في نظمه وبلاغته ولا في مضمونه، مما ينفي عنه مصدريته السماوية، ويعزز دعوى التأليف المحمدي له.

2ـ الموقف الاستشراقي من الإعجاز اللغوي والبياني

لمّا شعر المستشرقون أنهم ليسوا أهلا للحكم على القرآن من هذا الجانب، بحكم كونهم أعاجم لا يتذوقون اللسان العربي ولا يتقن عامتُهم لغتَه، لجأوا إلى التراث العربي ينبشون في مؤلفاته لعلهم يجدون ما يسعفهم ويؤيد فرضياتهم، غاضين الطرف، عن أهم المصادر التي بحثت في موضوع إعجازه وأصلت لقواعده وشروطه، ككتب علوم القرآن وكتابي الباقلّاني والجرجاني في الإعجاز.

يشير جولدتسيهر عند كلامه عن التفسير عند مدرسة المعتزلة واهتمامهم بالنواحي البلاغية في القرآن وتفوقهم فيها، إلى أنه "وجد في دوائرهم من يرفض أو يضعّف الاعتقاد بعدم القدرة على الإتيان بمثل القرآن (في الآية 88 من سورة الإسراء)، بله الاعتقاد بإعجازه؛ أي عدم القدرة على أحسن منه اعتمادا على وجهات النظر العقلي" (جولدتسيهر، 1955، الصفحات 142-143). وربما قصد بهؤلاء النظّام والجاحظ والرمّاني القائلين بالصرفة، التي تعني عند النظّام أن الإعجاز وقع بصرف همم الكفار عن محاولة الإتيان بمثل القرآن لا بعجزهم عن ذلك، خلافا للجاحظ والرمّاني، حيث يثبتان الإعجاز بالنظم والأسلوب أولا، وبالصرفة عن الاهتمام والمحاولة التي لم تثبت تاريخيا ثانيا؛ فهي عند الجاحظ دليل ثانٍ معضدّ لدليل النظم والبلاغة؛ أي أن القرآن معجز في بلاغته ونظمه، وانصراف الناس عن محاولة الإتيان به واقعًا دليل ثان على كونه معجز في نظمه وبلاغته، ولو رأوا غير ذلك لحاولوا مجاراته، وعند الرماني فهو معجز في نظمه وأسلوبه أولا ومعجز بصرف الناس عن الإتيان به ثانيا، ما يجعل الصرفة وجها من وجوه الإعجاز يعضد الوجه الأول الذي هو الأصل (رجب، 2014، الصفحات 249-250). ما يعني أن الموقف الاعتزالي، إذا استثنينا النظّام، لم يخرج عن موقف عامة المسلمين في كون القرآن معجز بنظمه وبلاغته وأسلوبه وبيانه، كما يوضّحه هذا النص للجاحظ، الذي أورده البقاعي في كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، نسرده على طوله.

"قال عمرو بن بحر الجاحظ (في كتاب الحجة في تثبيت خبر الواحد): إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغةً وأشد ما كانت عدةً، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم إلى حظهم بالحجة...، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وغيره ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً بعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستوراً وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرُم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولا طبع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدّل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واتساع لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته؛ لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الحرائب. وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في العقل والرأي بطبقات، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخُطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم. فمحال أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد علمهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر، وكما أنه محال أن يُطْبقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك أيضاً محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه" (البقاعي، 1995، صفحة 65/1).

ويتأكد الموقف الاعتزالي الموافق لموقف عامة المسلمين، المقر بالإعجاز اللغوي والبياني للقرآن، بهذا النص الوارد في مقدمة الكشاف لصاحبه الزمخشري المعتزلي، يقول: "قرآنا عربياً غير ذي عوج مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء..." (الزمخشري ج.، 1407هـ، صفحة 1/1).

ثم يشير جولدتسيهر في الهامش إلى أنه حتى أبا العلاء المعري حاول تقليد القرآن. ولكن لمّا وجده قد دافع عن عقيدة إعجاز القرآن في كتابه رسالة الغفران، عند الرد على ابن الراوندي الطاعن في القرآن . حسب جولدتسيهر. بهذا النص: "إنما هتك قميصه [يقصد ابن الراوندي]، وأبان للناظر خميصه، وأجمعَ ملحدٌ ومهتدٍ، وناكبٌ عن المحجة ومقتدٍ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بَهَرَ بالإعجاز، ولقيّ عدوه بالإرجاز، ما حُذيّ على مثالٍ، ولا أَشبهَ غريبَ الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرّجز

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من سهلٍ وحزون، ولا شاكلَ خِطابةَ العرب، ولا سَجْعَ الكهنة ذوي الأرَب، وجاء كالشمس اللائحة، نورا للمسرَّة والبائحة" (المعري، دت، صفحة 472)، علق على هذا الرد، مشككا في نيّة وصدقية دفاع المعري عن إعجاز القرآن، بقوله: "ولكنني أشك في أن شاعر اللزوميات يمكن أن يكون جادّا في الدفاع عن إعجاز القرآن وفي الرد على من طعن فيه. وقد رأينا فيما سبق أنه كان لا يعزف عن السخرية، وربما كان التحول السني مقصودا به التحفظ من غضب الأتقياء عليه بعد أن اجترأ على تقليد القرآن" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 142، هامش 4).

هكذا يجعل جولدتسيهر من نفسه مطلعا على القلوب، كما يجعل من أبي العلاء المعري منافقا، يظهر خلاف ما يبطن، تقية لغضب الأتقياء، من أجل أن يؤيد رأيه الذي لا تؤيده النصوص ولا الوقائع!

ويريد جولدتسيهر أيضا بهذا التعليق أن يقول بأن الاستجابة لتحدي القرآن قد وقعت حين أشار إلى أن المعري اجترأ على تقليد القرآن، وهو ما يبطل إعجازه، مع أن ما ذُكر عن أبي العلاء المعري، بأنّه صنّف كتابا في اللغة وعارض أو جارى سورا من القرآن، سماه "الفصول والغايات في محاذاة* السور والآيات"، ينفي فيه هو بنفسه غرض الرد على تحدي القرآن، بل قال: "عَلِم ربنا ما عَلِم، أني ألّفت الكَلِم، آمل رضاه المسلِّم وأتقي سخطه المؤلم، فهب لي ما أبلغُ به رضاك من الكلم والمعاني الغِراب" (المعري، 1938، صفحة 62).

هذا بالإضافة إلى أن أغلب المحققين ينكر نسبة هذا الأمر لأبي العلاء المعري؛ فالعلامة محمود محمد شاكر يصفه بأنّه باطل؛ لأن سيرة أبي العلاء وشهرته العلمية والخلقية التي طارت في الآفاق تدفع عنه هذه التهمة، وهو ما ينفيه عنه أيضا المستشرقان فيشر (A. Ficher) وريتشارد هارتمان (Richard Hartmann) (رجب، 2014، الصفحات 252-253).

وقال عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي: "وأما «الفصول» فليس من معارضة القرآن أو مناقضته في قبيل أو دبير، وترجمته في الثبت عند ياقوت والذهبي كتاب «الفصول والغايات» فقط، وكذا عند ناصر خسرو، وأما زيادة «في محاذاة السور والآيات» فالظاهر من كلام المتقدمين [أي إضافة منهم]...، والمحاذاة ليست من المعارضة في شيء... على أن الرجل معترف بإعجاز القرآن بعد تأليف «الفصول» اعترافا ليس وراءه غاية تُرام" (الراجكوتي، 2003، صفحة 226).

وقال الرافعي : " تلك ولا ريب فرية على المعري أراده بها عدو حاذق؛ لأن الرجل أبصر بنفسه وبطبقة

* ذكره عبد العزيز الميمني بلفظ "محاذاة" (الرجكواتي، 2003، صفحة 226)، وذكره الرافعي بلفظ "مجاراة" (الرافعي، 1973، صفحة 185).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكلام الذي يعارضه، وما نراه إلا أعرف الناس باضطراب أسلوبه والتواء مذهبه" (الرافعي، 1973، صفحة 185).

ويقول محقق الكتاب محمود حسن زناتي: "أما القول بأنه قصد به مجاراة القرآن أو معارضته فذلك من قول حسّاده، وكيف يريد ذلك وهو يمجّد الله فيه أحسن تمجيد وأروعه، ويقرّ له بالعبودية والعجز! سبحانك هذا بهتان عظيم" (المعري، 1938، صفحة د).

وهذا طه حسين، أحد تلاميذ المستشرقين المتأثر بفكرهم، يحاول أن يمنح تأويلا معقولا لكلام أبي العلاء المعري، على فرضية المعارضة للقرآن، يقول: "هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن في «الفصول والغايات» كما يظن بعض القدماء؟ نعم ولا؛ نعم إن فهمنا من المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة، إن فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى في الفن الأدبي فتأثَّره وجدّ في تقليده، كما يتأثر كل أديب ما يعجب به من المُثل الفنية العليا. ذلك شيء لا شك فيه، فأيسر النظر في كتاب «الفصول والغايات» يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلّد قصار السور وطوالها. وليس المهم أنه وُفّق في هذا التقليد أو لم يوفَّق، بل المحقق أن التوفيق لم يُقدَّر له كما لم يُقدَّر لغيره، بل المحقق أنه لم يظفر إلا بمِثْلِ سجع الكهان، ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة في الكتاب، وهي لا تضير الشيخ ولا تُلزمه إثما ولا حوبا".

ثم يستطرد طه حسين مبديا رأيه في المعارضة بقوله: "وأنا لا أفهم من المعارضة الاستجابة للتحدي، ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل سور القرآن، فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبي العلاء، فقد كان أشد تواضعا من أن يبلغ به الكبرياء إلى هذا الحد، وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته، وقد كان أحرص على الاحتياط والتحفظ من أن يعرّض نفسه لمثل هذا الخطر العظيم" (حسين، دت، الصفحات 231-232).

هذه آراء المحققين في كتاب «الفصول والغايات»، ولكن على فرضية غرض الاستجابة لتحدي القرآن، فهل أفلح أبو العلاء المعري في ذلك؟ لأن العبرة ليست في المحاولة، بل في النجاح في المحاولة؛ لأنها الدليل الذي ينقض إعجاز القرآن. ذلك ما ينفيه طه حسين في كلامه السابق، ولم يثبته أحد من النقاد إلى الآن (باظة، 2020، صفحة 171).

ويستمر جولدتسيهر في التلميح بما أورده عن البغدادي في الفرق، بأن "أغلب المعتزلة يدّعون أن الزنج والترك والخزر يستطيعون الإتيان بما يماثل أو يفوق نظم القرآن، ولكن ينقصهم أن يأتوا بالأشياء في موضعها الصحيح" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 143، هامش1)، دون أن يوضح أو يشير إلى أن البغدادي أورد

www.manaraa.com

هذه المزاعم في سياق حديثه عن المشبّهة، وتحديدا الذين شبّهوا كلام الله عز وجل بكلام خلقه، دون إقرار لهم، بل في معرض نقدها ومناقشتها والرد عليه، وبيان سقوطها، ودحضها (رجب، 2014، صفحة 251).

كما ادعى جولدتسيهر أن مدرسة محمد عبده لا تبالغ في القول بإعجاز القرآن وأنها تدور في فلك المدرسة الاعتزالية. وهو قول مردود، يكفي في رده إيراد ما يناقضه من تصريحاته هو نفسه في موضعين من كتابه. فأما التصريح الأول ففي النص الذي قدم فيه هذا الادعاء بقوله: "إنه وإن كانت هذه المدرسة لا تبالغ في تأكيد عنصر الإعجاز الخارق للعادة للقرآن، وكانت في هذه الأمور، مع دقة احتفاظها بطبيعة النصوص المأثورة، تدور في مدار المذهب العقلي" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 272)، وكأن هذا الأخير (المذهب المعتزلي) أيضا لا يبالغ في القول بالإعجاز!! ثم يضيف، وهنا التناقض: "فإنها برغم ذلك كانت تلقي وزنا خاصا لأن تكون غير متخلفة وراء السلف المحافظين، ولا مقصّرة عنهم في الاعتراف والإثبات لجمال نظم القرآن البلاغي، وبيان التماسك والترابط بين الأجزاء المتفرقة في مختلف السور، بل أن تَفُوق أولئك السلف في سَوْق الأدلة والبراهين على ذلك" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 272).

أما الموضع الثاني فهو تصريحه، وهو يصف الداعية المنتمي إلى مدرسة الدعوة والإرشاد الإسلامي، التي أسسها الشيخ رشيد رضا تلميذ محمد عبده، بقوله: "وكذلك داعية الإرشاد السني لا يسمح بشيء يغض من كمال محمد [ﷺ] ومقامه الرفيع، أو من إعجاز القرآن وعدم إمكان تحدّيه. وكلما كان أقرب إلى التساهل في الفروع، كان أشد تصميما وعدم هوادة في طلب الاعتراف بمزايا القرآن الإلهية" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 375).

فمن أين له هذا الادعاء بعدم مبالغة هذه المدرسة في تأكيد عنصر الإعجاز الخارق للقرآن وداعيتها أشد تصميما وعدم هوادة في طلب الاعتراف بمزايا القرآن الإلهية، وهي تفوق السلف في سَوْق الأدلة والبراهين على ذلك؟

وإذا كان جولدتسيهر قد أشار دون تفصيل إلى أن الإشادة بإحكام نظم القرآن مبدأ عام عند المعتزلة، فإن "جورج سال"، وهو يتحدث عن القرآن، قصر القول بإعجازه على أهل السنة والجماعة، للإيحاء بأن غيرهم لا يعتقد ذلك، بل صرّح في موضع آخر أن بعض فرق المسلمين تعارضه (سال، 1913، صفحة 139)، وهذا نصه: "ومما لا خلاف فيه أيضا أنه [القرآن] الحجة التي يرجع إليها في العربية وهو شمس قلادة الكتب العربية وواسطة عقدها، بل إن أهل السنة والجماعة من المسلمين يعتقدون ما أمروا في الكتاب نفسه أن يعتقدوه من أنه ليس في طاقة البشر أن يأتي بمثله، ويرون فيه معجزة مستمرة، هي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أعظم من إحياء الموتى، كافية وحدها أن تثبت أنه كلام الله" (سال، 1913، صفحة 123)*، رغم أن القول بإعجاز القرآن هو قول عامة طوائف المسلمين، كما رأينا في موقف المعتزلة وكما سنذكره في موقف الشيعة، خلافا لما أراد جولدتسيهر أيضا أن يوصله، حين أقحم الشيعة للطعن في القرآن، فقال: "وفي العهد المبكر للانشقاق الشيعي حصل فعلا الاستدلال على الطعن في القرآن الرسمي؛ للإشارة إلى تفكك السياق من جهة المعنى في الآيات المتفرقة المتتالية بعضها مع بعض، مما يمكن أن يكون سببه حذف الآيات الرابطة للسياق" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 295). ثم زعم مرة أخرى أنه: "لا ريب أنهم [أي الشيعة] في الطريقة العنيفة التي عالجوا بها نص القرآن [أي نقده]، قد هدفوا إلى إقامة البرهان على مدى التهاون والسطحية التي اتبعت في كتابة المصحف العثماني، وكيف أنه إلى هذه الكتابة يرجع ذلك الطابع المتقطع غير المتصل السياق الملاحظ في مواضع كثيرة من نص القرآن، حيث ترتب على ذلك تشويه لا علاج له في الجمال المعجز لنظم الكتاب الكريم الذي يجب أن يعترف به كل مسلم، فهم يقررون أن النص المألوف قد اختلط فيه كل شيء، وأنه يجب إعادته أولا إلى ترتيبه الصحيح، وأن التتالي الطبيعي لآية من الآيات لا يوجد في الآية التي تليها، لكنه ضل طريقه في مكان متأخر كثيرا، بل كذلك في نفس الآية الواحدة يسود انقطاع في صلة السياق، وأن الترتيب الطبيعي إنما تعاد أولا إذا بحثنا عن تمام نصف الآية في مكان بعيد عنها، وضممنا ما يتصل بعضه ببعض من الأجزاء البعيدة التشعب.

وهذا تشكك ناقد، قد يلح أحيانا مثله على النظر العلمي أيضا، وإن لم يكن إلى هذا الحد الذي لا يستسيغه العقل" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 310).

ومع تعمّد جولدتسيهر تبني الشاذ من رأي الشيعة من القرآن وإعجاز أسلوبه، فإنه لم يجد مبررا لذلك سوى أن يصف ما قاله هؤلاء الغلاة إلا أنه "تشكك ناقد" يتطلبه البحث والنظر العلميين (رجب، 2014، صفحة 247)، حتى وإن عاب على المبالغ في التشكك؛ لأن القصد هو تمرير القليل من الشك، حيث مقاومة الكل قد تسمح بمرور الجزء.

إن ما يجب أن يعرفه جولدتسيهر وسال وغيرهما "أن الحق لا ينقلب باطلا لاختلاف الناس فيه، ولا الباطل يصير حقا لاتفاق الناس عليه" (العامري، 1988، صفحة 192)، كما يقول أبو الحسن العامري، ولو ترك الناس الأمور لوجودِ مخالفٍ مهما كان خلافه، لما استقام لهم شيء (العباقي، 2009، صفحة 133). وقد ذكر جولدتسيهر نفسه أن ما أورده من أقوال لا يعبّر عن حقيقة الموقف العام للشيعة تجاه القرآن (جولدتسيهر، 1955، صفحة 301)، وهذا ما يؤكده الطبرسي في تفسيره بقوله: "أما الزيادة فيه [أي القرآن]

* تجدر الملاحظة إلى أن صاحب كتاب "آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره" أورد كثيرا من الطعون للقرآن وإعجازه ونسبها لجورج سال، وهذا غير صحيح؛ لأن تلك الطعون الواقعة في التذييلات، لمترجم الكتاب هاشم العربي، لذا لم أعتمدها هنا.

www.manaraa.com

فمجمع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة، أن في القرآن تغييرا أو نقصانا، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى، قدس الله روحه، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء، في جواب المسائل الطرابلسيات، وذكر في مواضع أن العلم بصحة نقل القرآن، كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت، والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه؛ لأن القرآن معجزة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه، وقراءته، وحروفه، وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيرا أو منقوصا، مع العناية الصادقة، والضبط الشديد؟" (الطبرسي، 1986، صفحة 44/1).

ويؤكد هذا الموقف العام الشيعي العلامة الطباطبائي أيضا، الذي وضع في تفسيره عنوانا بـ (كلام في أن القرآن مصون عن التحريف)، وقال فيه إن القرآن الذي أنزله الله على نبيه، صلى الله عليه وآله وسلم، ووصفه بأوصاف خاصة كالإعجاز، وارتفاع الاختلاف، والهداية والنورية والذِّكرية والهيمنة على سائر الكتب، هو عينه القرآن الذي بين أيدينا مصون بصيانة إلهية عن الزيادة والنقيصة والتغيير، كما وعد الله نبيه [ﷺ] فيه (الطباطبائي، 1983، صفحة 107/12).

وأما زعم جولدتسيهر بأن الشيعة تدعي أن في القرآن تفككا في السياق، فكلام الشيعة أنفسهم يردّ ذلك ويبطله، يقول الطبرسي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء،82]؛ أي أفلا يتفكر اليهود والمنافقون في القرآن إذ ليس فيه خلل ولا تناقض ليعلموا أنه حجة. وقيل ليعلموا أنهم لا يقدرون على مثله فيعرفوا أنه ليس بكلام أحد من الخلق. وقيل ليعرفوا اتساق معانيه وائتلاف أحكامه وشهادة بعضه لبعض وحسن عباراته. وقيل ليعلموا كيف اشتمل على أنواع الحكم من أمر بحسن ونهي عن قبيح وخبر عن مخبر صدق ودعاء إلى مكارم الأخلاق وحث على الخير والزهد مع فصاحة اللفظ وجودة النظم وصحة المعنى فيعرفوا أنه خلاف كلام البشر، والأولى أن تحمل على الجميع؛ لأن من تدبر فيه عَلِم جميع ذلك" (الطبرسي، 1986، صفحة 125/3). فبعد ما ذكر مجمل أقوال الشيعة في معنى نفي الاختلاف عن القرآن، ومنها نفي تفكك السياق والاضطراب، رجح أولوية القول بكل تلك المعاني التي ذكرها عن نفي الاختلاف.

3 ـ الموقف الاستشراقي من الإعجاز التاريخي

أما الموقف الاستشراقي العام من الإعجاز التاريخي المتمثل في الإشارة إلى بعض الأحداث التاريخية الغيبية لما قبل البعثة أو بعدها، فهو لا يختلف عن موقفهم تجاه الإعجاز اللغوي والبياني، لذلك يتكلفون في إيجاد مصادر تاريخية يهودية أو نصرانية، ... يدّعون أن محمدا ﷺ اقتبس الأخبار منها، إذا كانت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذه الأخبار مما وقع قبل البعثة، كما في قصة أصحاب الكهف وقصص الأنبياء مع أقوامهم وغيرها من القصص القرآني، متغافلين عن أن المصدر الإلهي الواحد لهذه الأخبار هو ما يجعلها تتفق في كثير من عمومياتها وبعض تفاصيلها. وإذا لم يجدوا لها سندا في هذه المصادر يجعلونها من الأساطير التي ليس لها أساس إلا في الخيال، أو يلجأون إلى التأويل المتعسف الذي لا يقبله عقل ولا بيان، وتأمل هذا الموقف الاستشراقي من قصة قوم عاد ونبيهم هود عليه السلام، التي لم تذكر في مصادرهم، كيف يتعسفون في تخريجها بما لا يقبله المنطق ولا الواقع التاريخي، الذي أثبتته فيما بعد الحفريات الأركيولوجيا الحديثة التي كشفت عن أثار قوم عاد. جاء في دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية) ما نصه: "أما مسألة هل وجدت حقا أمة تسمى «عاد»؟ وفي أي مكان عاشت؟ فلا تزال بلا حل، وأنساب قوم عاد التي قال بها العرب لا قيمة لها بطبيعة الحال...، على أن فلها وزن قد بيّن أن القول المأثور «من العاد» يرد أيضا بدلا من عبارة «من عهد عاد»، ومن ثم ذهب إلى أن عاد كانت في الأصل اسم جنس؛ أي الزمن القديم، والصفة منه «عادي»؛ أي قديم جدا، وأن هذه الأمة الأسطورية نشأت من تفسير خاطئ لهذا التعبير" (السكران، 2014، صفحة 143).

أما إذا كانت هذه الأحداث مما وقع بعد البعثة فيجعلونها من قبيل تمنيات وآمال المسلمين، أو يلجأون إلى آلية التأويل، كما في هزيمة الروم أمام الفرس، وتنبؤ القرآن بانتصارهم في بضع سنين، في أول سورة الروم، فقد لجأ جولدتسيهر إلى قراءة شاذة ليثبت بها تناقض القرآن وإبطال النبوءة التي تضمنتها، يقول بعد أن أورد التفسير الإسلامي للآية وارتيابه في الحوادث التاريخية: "وفي هذا يرى المسلمون دليلا على نبوة محمد [ﷺ]؛ لأنه تنبأ بانتصار (هرقل) على الفرس سنة 625 م وأخبر به على وجه التأكيد، ولكن الجملة التالية لم تذكر لنا حقا مثل هذا التحديد لحدث تاريخي خاص سيتحقق وقوعه يوما. وإنما يريد محمد [ﷺ] أن يعبر بوجه عام عن أمله في تقلب الحظ. فالروم الآن مغلوبون، ولن يمضي وقت طويل حتى يصيروا غالبين. هذه هي سنة التاريخ المتقلبة الأطوار" (جولدتسيهر، 1955، الصفحات 30-31 و77).

هكذا يجعل جولدتسيهر النبأ اليقين للقرآن بانتصار الروم على الفرس مجرد تخمين وأمنية يتمناها محمد ﷺ بناء على سنّة تقلب أطوار التاريخ! فهل يعقل أن يجاهر رجل، يدعي النبوة، بتخمينه بانتصار قوم، كل المؤشرات تدل على تقهقر قوتهم، على عدوٍ كل الدلائل تؤكد تفوقه، رغم ما في الأمر من خطورة تترتب على تخلف هذا التنبؤ وتكذيبه، وهي نسف الدعوة المحمدية من أساسها، خاصة وأن صدق هذا الخبر سيوضع على المحك في بضع سنين لا تتجاوز تسع سنين؟!

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم يضيف جولدتسيهر قائلا في نفس الصفحة: "بيد أن الجميع لم يتفقوا على قراءة النص كما سبق، بل قرئ أيضا: (غَلَبت الروم "بالبناء للفاعل" في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيُغلبون "بالبناء للمفعول" في بضع سنين). والمسلمون الذين أجازوا هذه القراءة يرون فيها إخبارا بالنصر الذي أحرزته الجماعة الإسلامية على البزنطيين بعد هذا الوحي بتسع سنين.

ونرى أن في القراءة المشهورة والقراءة المخالفة* لها تأويلين متغايرين تغايرا بعيدا. فالمنتصرون في القراءة المشهورة هم المنهزمون في القراءة المخالفة. والفعل المبني للفاعل في الأولى مبني للمفعول في الثانية، وإذاً فهما قراءتان وتأويلان لجملة واحدة من كلام الله متعارضان إلى أبعد مدى" (جولدتسيهر، 1955، الصفحات 30-31).

ويكفي في الرد على ما شكك جولدتسيهر في حدوثه أن يرجع إلى كتب التاريخ ليجد أن الواقعة كانت على وجه الحقيقة وليست على وجه الرجاء، كما يزعم، لينفي التنبؤ الصادق عن الرسول ﷺ، إذ لكل أحد أن يرجو، ولكل فرد أن يأمل (حمودة، 1948، الصفحات 195-197).

وأما على قراءة القلة الثانية، التي جعلت الروم غالبين ثم مغلوبين، فقد تأولها المفسرون، كما ذكر جولدتسيهر نفسه، بأن الروم الذين حققوا انتصارا على الفرس وسيطروا على الشام، سيغلبهم المسلمون، وذلك ما حدث فعلا؛ فإنه حينما تمت الغلبة للروم وذهب هرقل إلى بيت المقدس، في ذلك الحين ذهب جيش إسلامي صغير إلى البلقاء، التي تسمى الآن شرقي الأردن، فحارب جيشا من الروم والعرب، وهي الواقعة المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم غزوة مؤتة؛ وقعت في السنة الثامنة من الهجرة. وهذه الغزوة التي لم يبال بها هرقل، ولعله لم يسمع بها، كانت فاتحة الغزوات الإسلامية التي نزعت الشام من سلطان هرقل... ولم يكن بين تَمَام الظَّفر لهرقل وبين تَمَام الهزيمة عليه في الشام وتسلط المسلمين عليها إلا بضع سنين، فبين غزوة مؤتة وبين واقعة اليرموك ست سنوات.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، فبأمره غلبت الفرس الروم، ثم أُديل للروم على الفرس في بضع سنين، ثم أُديل للمسلمين على الروم في بضع سنين.

قال الألوسي يجوز تخالف معنى القراءتين إذا لم يتناقضا، وكون فريق غالبا ومغلوبا في زمانين غير متدافع، فإذن لا تناقض كما توهمه جولدتسيهر، بل في القراءتين إعجاز (حمودة، 1948، صفحة 198).

---

* يقصد القراءة الشاذة المنسوبة لأبي سعيد الخذري وعلي بن أبي طالب وابن عمر، رضي الله عنهم (ابن عطية، 1993، صفحة 327/4) ، (القرطبي، 2003، الصفحات 14/4-5)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4 ـ الموقف الاستشراقي من الإعجاز العلمي

قد يكون هذا الجانب من الإعجاز هو الأكثر تأثيرا في عدد من المستشرقين المنصفين الباحثين عن الحقائق العلمية بغض النظر عن مصدرها، وباعتبار الإعجاز العلمي هو تلك الإشارات القرآنية في بعضٍ من آياته إلى حقائق علمية ثابتة، كانت مجهولة في زمن النبوة حسب النسق المعرفي الحديث، وكشف عنها العلم المعاصر، فقد أثار ذلك لدى هؤلاء المستشرقين سؤالا عن كيف يمكن لرجل أمي عاش قبل أربعة عشر قرنا في الصحراء يشير، ولو إجمالا، إلى هذه الحقائق العلمية التي لم يتم التوصل إلى اكتشافها إلا بعد جهد من البحث المتراكم والمتواصل، ربما عبر أجيال، من علماء متخصصين ووسائل دقيقة ومتطورة؟

ورغم هذا السؤال المشروع؛ الذي يقود، غير المتعصبين، إلى الاعتراف بصدق نبوّة سيدنا محمد ﷺ، والإيمان بالمصدر الإلهي للقرآن الكريم، والذي يطرح نفسه بإلحاح، فإني أعتقد أن الموقف الاستشراقي العام يتفادى طرحه، بتجنب الخوض في الموضوعات المتعلقة بهذا الجانب، أو بالمرور عليها مرورا سريعا لا يثير إشكالات تؤدي إلى طرح السؤال السابق، كما فعل محرر مادة "القرآن" وما يتعلق به، في دائرة المعارف الإسلامية، المستشرق ويلش (A. T. Welsh)، حين عَرْضه لموضوعات القرآن ولاحظ أن فيه آيات تشير إلى بعض الظواهر الطبيعية والكونية والحقائق العلمية، فاكتفى بعرضها دون تعليق، رغم ما تضمنته من حثٍّ على التدبر والنظر العقلي (أبو ليلة، 2002، الصفحات 317-319).

وأحيانا يتعرضون لها بالتناول، ولكن مع بعض التعليقات المقلّلة من شأنها، مثل ما فعل المستشرق جولدتسيهر مع مدرسة محمد عبده في التفسير، التي حاولت أن تفسر القرآن الكريم تفسيرا سننيّا، يستوعب قوانين النفس والاجتماع والتاريخ والكون..، حيث رغم إقراره بأن الشيخ محمد عبده قد أعلن أن القرآن في الأساس كتاب هداية، ولم يتنزل ليكون كتابا علميا تُشرح فيه المسائل العلمية الكونية (جولدتسيهر، 1955، صفحة 378)، إلا أنه حشد أمثلة عديدة أراد أن يبرر بها للقارئ الغربي كيف حرصت هذه المدرسة أن تظهر الإعجاز العلمي للقرآن بحمله على كل نظرية علمية تظهر، أو اكتشاف علمي يعلن (رجب، 2014، صفحة 261). ثم يعلق "ولكن التفسير الحديث لمدرسة محمد عبده لا يجبن أيضا أمام التوفيق بين القرآن والنظريات الحديثة في العلوم الكونية" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 383)، وهو يقصد أن هذه المدرسة تأثرت بالحضارة الغربية حتى تكلفت بادعاء، مجرد تكلف وادعاء، إشارة القرآن الكريم لكل ما يكتشف من النظريات والعلوم.

ويؤكد هذه النظرة الاستشراقية لجولدتسيهر، استغرابه من المكانة الرفيعة التي يحظى بها النبي ﷺ وإعجاز القرآن لدى المدرسة الإسلامية الحديثة، ممثلة بمدرسة الشيخين محمد عبده ورشيد رضا، والتي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أعجب كثيرا بمنهجها التحرري في المجال الفقهي وتجاوزها بعض أحكام المسائل الفرعية، ودعوتها إلى نبذ تقليد المدارس الفقهية التقليدية، ونقدها بعض السُّنن، وفتح باب الاجتهاد، والانفتاح على الغرب ومنجزات الحضارية، وكأن الجمع بين الأمرين عنده فيه تناقض، فيقول: "وكذلك داعية الإرشاد السني لا يسمح بشيء يغض من كمال محمد [ﷺ] ومقامه الرفيع، أو من إعجاز القرآن وعدم إمكان تحدّيه. وكلما كان أقرب إلى التساهل في الفروع، كان أشد تصميما وعدم هوادة في طلب الاعتراف بمزايا القرآن الإلهية. فهو كأشد المحافظين من أهل السنة يعُدّ القرآن كتاب الله المنزل، بل يريد أن يجد فيه . كما أمكن أن نرى ذلك في مثال محمد عبده . وُجوهًا من الكمال يمر بها السني المحافظ دون انتباه. وفي هذا ينهج لنفسه في نفس الوقت طريقا ممهدا، ليجد في كتاب الله، الذي يمثل عنده جماع الحقائق، تعبيرا عن الآراء الحديثة للفلسفة وعلوم الطبيعة والاجتماع" (جولدتسيهر، 1955، صفحة 375). ولا شك أن عبارة "يريد أن يجد فيه.." في نصه، توحي بالقول أن ذلك الكمال وتلك الحقائق الفلسفية والطبيعية والاجتماعية، في نظره، ليست في القرآن، بل هي مجرد رغبة وتكلف في إيجادها من الداعية، وهي ليست كذلك!

والغريب في هذا الموقف أن كثيرا من المستشرقين أشاد بعبقرية ابن خلدون وما أبانت عليه قريحته من الحقائق العلمية في التاريخ والعمران وسنن الأنفس والاجتماع، متناسين أو متجاهلين أن عبقريته لم تفصح عن تلك الحقائق والنظريات إلا بفضل تدبره المتواصل في آيات القرآن، كما يبدو ذلك جليا من تعقيباته على ما يسرده من استنتاجات ويقرره من قوانين ونظريات.

أخيرا، وخلافا لهؤلاء المستشرقين المنكرين إعجاز القرآن الكريم، يوجد منهم فئة أقرت بإعجازه، وعاب بعضها على من حاول طمس حقيقة مصدره الإلهي ودليليته على صدق رسالة محمد ﷺ. وهذه بعض تصريحاتهم، التي تؤكد وتدعم ما أوردناه من ردود ومناقشات للموقف الاستشراقي المنكر لإعجاز القرآن.

. يقول المفكر الفرنسي المسلم "جرينييه"، الذي كان عضوا بمجلس النواب الفرنسي، عن سبب إسلامه: "إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، والتي درستها من صغري وأعلمها جيدا، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت؛ لأني تيقنت أن محمدا ﷺ أتى بالحق الصراح من قبْل ألف سنة، من قبْل أن يكون معلمٌ أو مدرسٌ من البشر. ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم قارن كل الآيات المرتبطة بما تعلم جيدا، كما قارنت أنا ... لأسلم بلا شك، إن كان عاقلا خاليا من الأغراض" (أبو ليلة، 2002، صفحة 320).

. ويؤكد ما سبق "هاري جاي لورد مان" في كتابه "نحو فهم صحيح للإسلام": "إن المعلومات الصحيحة في القرآن والنبوءات الصادقة التي يحتوي عليها القرآن بما لا يدع مجالا للشك أن محمد [ﷺ] لم يكن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليتوصل إليه نفسه. ولو كان القرآن من وضع محمد لاستطاع غيره من البشر أن ينافسه في ذلك، وهو شيء لم يحدث" (أبو ليلة، 2002، صفحة 321).

. ويقول المستشرق "شيبس": "يعتقد بعض العلماء أنَّ القرآن كلام محَمَّدٍ [ﷺ]، وهذا هو الخطأ المحضُ، فالقرآن هو كلام الله تعالى الموحى على لسان رسوله محَمَّد [ﷺ]. وليس في استطاعة محَمَّد [ﷺ]، ذلك الرجل الأمِّي في تلك العصور الغابرة، أنْ يأتينا بكلام تحار فيه عقول الحكماء ويهدي به الناسَ من الظلمات إلى النور. وربَّما تعجبون من اعتراف رجلٍ أوروبِّي بهذه الحقيقة، لا تعجبوا فإنِّي درستُ القرآن فوجدتُ فيه تلك المعاني العالية والنظم المحكمة، وتلك البلاغة التي لم أرَ مثلها قطُّ، فجملة واحدةٌ تغني عن مؤلَّفات" (بني عامر، 2004، صفحة 223).

. وهذه "ديبرا بوتر"، الصحفية الأمريكية التي اعتنقت الإسلام سنة 1980م، تقول: "كيف استطاع محَمَّدٌ [ﷺ] الرجل الأمِّي الذي نشأ في بيئة جاهلية أنْ يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتَّى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بُدَّ إذنْ أنْ يكون هذا الكلام هو كلام الله عزَّ وجلَّ" (خليل، 1992، صفحة 55).

. واشتهر الطبيب الفرنسي موريس بوكاي بوقفاته الموضوعية العلمية مع الكتب السماوية، وخرج من دراسته هذه بعدد من النتائج ضمَّنها كتابه المشهور القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، أو دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة، إذ يقول: "كيف يمكن لإنسان – كان في بداية أمره أُمِّيًا – ثمَّ أصبح فضلاً عن ذلك سيِّد الأدب العربي على الإطلاق، أنْ يصرِّح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أيِّ إنسان في ذلك العصر أنْ يكونها، وذلك دون أنْ يكشف تصريحه عن أقلِّ خطأ من هذه الوجهة؟" (بوكاي، 2004، صفحة 158).

. وتقول "يوجينا غيانة ستشيجفسكا"، الباحثة البولونية المعاصرة في كتابها "تاريخ الدولة الإسلامية": "إنَّ القرآن الكريم مع أنَّه أُنزل على رجل عربي أمِّي نشأ في أمَّة أمِّية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أنْ يتعلَّمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات. كما نجدُ في القرآن حقائقَ علميةً لم يعرفها العالم إلاَّ بعد قرون طويلة" (خليل، 1992، صفحة 68).

. ونختم بهذا التصريح المطول للمستشرقة الإيطالية التي أظهرت فيه كثيرا من جوانب إعجاز القرآن الكريم، تقول "لورا فيشيا فاغليري" في كتابها "دفاع عن الإسلام": "كيف يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محَمَّد [ﷺ] وهو العربي الأمِّي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات* لا ينمُّ منها عن

* تريد قول النبي ﷺ: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أدنى موهبة شعرية؟ وعلى الرغم أنَّ محَمَّدا [ﷺ] دعا خصوم الإسلام إلى أن يأتوا بكتاب مثل كتابه، أو على الأقلِّ بسورةٍ من مثل سُوَره ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة،23]. وعلى الرغم من أنَّ أصحاب البلاغة والبيان الساحر كانوا غير قلائل في بلاد العرب، فإنَّ أحدًا لم يتمكَّن من أنْ يأتي بأيِّ أثر يضاهي القرآن. لقد قاتلوا النبيَّ [ﷺ] بالأسلحة، ولكنَّهم عجزوا عن مضاهاة السموِّ القرآني؛ ذلك أن الكتاب إلى جانب كماله من حيث الشكل والطريقة، قد اثبت أنه ممتنع عن التقليد والمحاكاة حتى في مادته. فنحن نقرأ فيه، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة، تنبؤاً ببعض أحداث المستقبل، ووصفا لوقائع حدثت منذ قرون، ولكنها كانت مجهولة على وجه عام. إن ثمة إشارات كثيرة إلى نواميس الطبيعة وإلى علوم مختلفة؛ دينية ودنيوية. إننا نقع ثمة على ذخائر واسعة من المعرفة تُعجِز أكثر الناس ذكاء، وأعظم الفلاسفة، وأقدر رجال السياسة. ولهذه الأسباب كلها لا يمكن للقرآن أن يكون من عمل رجل غير مثقف، قضى حياته كلها في وسط مجتمعٍ جافٍ، بعيد عن أصحاب العلم والدين، رجل أصرّ دائما على أنه ليس إلا رجلا مثل سائر الرجال، فهو بوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات ما لم يساعده على ذلك ربّه الكليّ القدرة. إن القرآن لا يعقل أن ينبثق عن غير الذات التي وسع علمها كل شيء في السماء والأرض" (فاغليري، 1981، الصفحات 57-58).

5. خاتمة

نصل في النهاية إلى نتيجة أن الموقف الاستشراقي العام من إعجاز القرآن الكريم هو نفيه وعدم الإقرار به، وهذا نتيجة مواقفهم المسبقة الناكرة لنبوة سيدنا محمد ﷺ، والتي عَمِلتْ على تكريسها في مخيال وقناعة المجتمعات الغربيةِ الكنيسةُ المسيحيةُ، التي ترى في الإسلام خطرا يتهدد مصالحها وهيمنتها، فلجأت إلى تشويه صورة نبيه ﷺ وتحريف حقائق الكتاب الذي تأيّد به عن طريق الترجمة، فكان نتيجة ذلك أن نسبوا القرآن لمحمد ﷺ وراحوا يبحثون له عن مصادر تأليفه غير مصدره الحقيقي، ويؤولون معانيه وحقائقه بما يتناسب وهذه الرؤية التي يؤمنون ويسلمون بها. ومن تلك الحقائق إعجازه؛ فاستعملوا آلية التشكيك والتلميح في إعجازه اللغوي والبياني، بالاعتماد على بعض الشبهات والأقوال الشاذة المبثوثة في بعض مصادر التراث العربي الإسلامي وتأويلها بما يخدم أغراضهم، وذلك لمّا علموا أنهم ليسوا أهلا للحكم عليه من هذا الوجه. ووظفوا تقنيتي التوفيد والتأويل في طمس إعجازه التاريخي، بما ينسبون إليه من معارف وافدة من الكتب المقدسة الأخرى أو بما يؤولونه من معاني تبعده عن تلك الحقائق الثابتة، كما اعتمدوا آليتي التجاهل والتهوين من حقائقه العلمية وإشاراته السننية في التغطية على إعجازه العلمي.

هذا ما توصل إليه جهد المقلّ، الذي اقتصر عمله على ثلاثة جوانب من الإعجاز، مع قلة المراجع المترجمة وغيرها في هذا الجانب، ما يجعل الباب مشرعا أمام الباحثين والدارسين لاستكمال البحث في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجوانب الأخرى من الأعجاز، أو الاستقراء الموسع لآراء المستشرقين وتناولها بالتحليل والنقد، ولكن قبل ذلك نهيب بالأساتذة المتمكنين والمترجمين المبرَّزين إلى ترجمة المادة الاستشراقية المؤلفة في موضوع الإعجاز بصفة خاصة والدراسات القرآنية بصفة عامة، لتوفير مادة علمية يعتمدها الباحثون العرب، غير المتقنين للغات الأجنبية، في دراساتهم. هذا وبالله التوفيق والحمد لله أولا وأخيرا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

6ـ قائمة المصادر والمراجع

1. **إبراهيم بن عمر السكران. (2014). *التأويل الحداثي للتراث، التقنيات والاستمدادات*. (ط 1). الرياض: دار الحضارة.**

2. أبو الحسن العامري. (1988). *كتاب الإعلام بمناقب الإسلام*. تحقيق أحمد عبد الحميد غراب. (ط 1). الرياض: دار الأصالة للثقافة والإعلام.

3. أبو العلاء المعري. (1938). *الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ*. ضبطه وفسر غريبه: محمود حسن زنات. (ط 1). القاهرة: مطبعة حجازي.

4. أبو العلاء المعري. (دت). *رسالة الغفران*. ترجمة عائشة عبد الرحمان. (ط9). القاهرة: دار المعارف.

5. إجنتس جولدتسيهر. (1955). *مذاهب التفسير الإسلامي*، ترجمة عبد الحليم النجار. (دط). القاهرة: مكتبة الخانجي، بغداد: مكتبة المثنى.

6. الحسن العباقي. (2009). *القرآن الكريم والقراءة الحداثية، دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون*. (ط 1). دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر.

7. الفضل بن الحسن الطبرسي. (1986). مجمع *البيان في تفسير القرآن*. تصحيح وتحقيق وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي والسيد فضل الله الطباطبائي (ط 1). بيروت: دار المعرفة.

8. برهان الدين البقاعي. (1995). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. (دط). بيروت: دار الكتب العلمية.

9. جار الله الزمخشري. (1407هـ). *الكشاف عن حقاق غوامض التنزيل*. (دط). بيروت: دار الكتاب العربي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

10. جرجس (جورج) سال. (1913). *مقالة في الإسلام*. ترجمة هشام العربي. (ط 3). مصر، بولاق: المطبعة الأنكليزية الأميركانية.

11. خالد باظة. (2020). *لماذا أنا مسلم؟* (ط 2). القاهرة: نيوبوك للنشر والتوزيع.

12. طه حسين. (دت). *مع أبي العلاء في سجنه*. (دط). القاهرة: دار المعارف.

13. عبد الحق بن عطية. (1993). *المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز*. تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.

14. عبد الرزاق أحمد رجب. (يناير، 2014). المستشرق المجري جولدتسيهر والإعجاز في القرآن الكريم. *مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية*. غزة، المجلد 22، العدد الأول، الصفحات 237-267.

15. عبد العزيز الميمني الراجكوتي. (2003). *أبو العلاء وما إليه*. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.

16. عبد الوهاب حمودة. (1948). *القراءات واللهجات*. (ط1). القاهرة: دار النهضة المصرية.

17. عماد الدين خليل. (1992). *قالوا عن الإسلام*. (ط 1). الرياض: الندوة العالمية للشباب.

18. لورا فيشيا فاغليري. (1981). *دفاع عن الإسلام*. ترجمة منير البعلبكي. (ط 5). بيروت: دار العلم للملايين.

19. محمد أحمد معبد. (1986). *نفحات من علوم القرآن*. (ط 1). المدينة المنورة: مكتبة طيبة.

20. محمد أمين حسن بني عامر. (2004). *المستشرقون والقرآن الكريم*. (ط 1). الأردن، إربد: دار الأمل للنشر والتوزيع.

21. محمد بن أحمد القرطبي. (2003). *الجامع لأحكام القرآن*. تحقيق البخاري هشام سمير. (دط). الرياض: دار عالم الكتب.

22. محمد بن سعيد الوزان. (دت). *موقف المستشرقين من القرآن الكريم، دراسة في بعض دوائر المعارف الغربية*. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

23. محمد حسين الطباطبائي. (1983). *الميزان في تفسير القرآن*. (ط 5). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

24. محمد محمد أبو ليلة. (2002). *القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي*. (ط1). القاهرة: دار النشر للجامعات.

25. مصطفى صادق الرافعي. (1973). *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*. (ط 9). بيروت: دار الكتاب العربي.

26. موريس بوكاي. (2004). *القرآن الكريم والتوراة والأنجيل والعلم*. (ط 2). القاهرة: مكتبة مدبولي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com